وهذه الإفسادة هي ما نحن بصدده الآن ، حيث سيتجمع اليهود في وطن واحد ليتحقق وَعْد الله بالقضاء عليهم ، وهل يستطيع المسلمون أن ينقضُّوا على اليهود وهم في شتيت الأرض ؟ لا بُدَّ أن الحق سبحانه أوحى إليهم بفكرة التجمُّع في وطن قومي لهم كما يقولون ، حتى إذا أراد أَخْذهم لم يُفلتوا ، ويأخذهم أَخْذ عزيز مقتدر .

وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الإسراء]

أي : مجتمعين بعضكم إلى بعض من شَتَّى البلاد ، وهو ما يحدث الآن على أرض فلسطين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ .. ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الإسراء]

الحق من حقَّ الشيء . أي : ثبت ، فالحقّ هو الشيء الثابت الذي لا يطرأ عليه التغيير أبداً ، أما الباطل فهو مُتغير مُتلوّن لأنه زَهُوق ، والباطل له ألوان متعددة ، والحق ليس له إلا لون واحد .

لذلك لما ضرب الله لنا مثلاً للحق والباطل ، قال سبحانه : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد]

فإنْ رأيت في عَصْر من العصور خَوَراً يصيب أهل الحق ، وعلُوّاً يحالف أهل الباطل فلا تغتر به ، فهو علُوّ الزَّبَد الذي يعلو صفحة

الماء ، ولا ينتفع الناس به ، وسرعان ما تُلقي به الريح هنا وهناك لتجلوَ صفحة الماء الناصعة المفيدة ، أما الزَّبَد فيذهب جُفَاءً دون فائدة ، ويمكث في الأرض الماء الصافي الذي ينتفع الناس به في الزراعة ونحوها .

وهكذا الباطل مُتغيِّر مُتقلِّب لا ينتفع به ، والحق ثابت لا يتغير لأنه مَظْهرية من مَظْهريات الحق الأعلى سبحانه ، وهو سبحانه الحق الأعلى الذي لا تتناوله الأغيار .

وقوله : ﴿ أَنزَلْنَاهُ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

ونلاحظ هنا أن ضمير الغائب في ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ لم يتقدَّم عليه شيء يُوضِّح الضمير ويعود إليه ، صحيح أن الضمير أعْرفُ المعارف ، لكن لا بُدَّ له من مرجع يرجع إليه . وهنا لم يُسبِق الضمير بشيء ، كما سُبِق بمرجع في قوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ .. (٨٨) ﴾ [الإسراء]

فهنا يعود الضمير في (بِمِثْلِهِ) إلى القرآن الذي سبق ذكره .

نقول : إذا لم يسبق ضمير الغائب بشيء يرجع إليه ، فلا بُدَّ أن يكون مرجعه مُتعيِّناً لا يختلف فيه اثنان ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص]

فهو ضمير للغائب لم يسبق بمرجع له ؛ لأنه لا يرجع إلا إلى الله تعالى ، وهذا أمر لا يُختلَفُ عليه .

كذلك في قوله تعالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

أي : القرآن ؛ لأنه شيء ثابت مُتعيِّن لا يُختلف عليه . وجاء الفعل أنزل للتعدية ، فكأن الحق سبحانه كان كلامه ـ وهو القرآن ـ محفوظاً في اللوح المحفوظ ، إلى أنْ يأتيَ زمان مباشرة القرآن لمهمته ،

فأنزله الله جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① ﴾ [القدر]

وهذا هو المراد من قوله (أَنْزَلْنَاهُ) ثم نُنزِّله مُنَجَّماً حَسْبَ الأحداث فى ثلاث وعشرين سنة مُدَّة الدعوة كلها ، فكلما حدث شىء نزل القسط أو النجم الذى يعالج هذه الحالة .

و ﴿ أَنزَلْنَاهُ .. ⑩⓪⑤ ﴾ [الإسراء] أى : نحن ، فالمراد الحق سبحانه وتعالى هو الذى حفظه فى اللوح المحفوظ ، وهو الذى أنزله ، وأنزله على الأمين من الملائكة الذى اصطفاه لهذه المهمة .

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ①⑨③ ﴾ [الشعراء] أى : جبريل ـ عليه السلام ـ الذى كرَّمه الله وجعله روحاً ، كما جعل القرآن روحاً فى قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. ⑤② ﴾ [الشورى]

وقال عنه أيضاً : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ①⑨ ﴾ [التكوير]

والكريم لا يكتم شيئاً ممَّا أوحى إليه ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ②⓪ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ②① ﴾ [التكوير]

هذه صفات جبريل الذى نزل بالوحى من الحق سبحانه ، ثم أوصله لمن ؟ أوصله للمصطفى الأمين من البشر : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ②② وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ②③ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ②④ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ②⑤ ﴾ [التكوير]

إذن : فالقرآن الذى بين أيدينا هو هو الذى نزل من اللوح المحفوظ ، وهو الحق الثابت الذى لا شكَّ فيه ، والذى لم يتغيَّر منه حرفٌ واحدٌ ، ولن يجد فيه أحد ثُغْرة للاتهام إلى أنْ تقومَ الساعة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء] الأولى كانت : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

أى : الوسائل التى نـزل بها كلها ثابتـة ، وكلها حَقٌّ لا رَيْبَ فـيه ولا شكٌّ ﴿ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ (١٠٥) ﴾ [الإسراء] أى : مضـمونه ، ومـا جاء به القـرآن هو أيضاً حقٌّ ثابت ؛ لأن الـقرآن نزل مـعجـزة ، ونزل كتـاب منهجٍ ، مـعـجـزة حق لأنه تحـدّى الفُصَـحـاء والبلغـاء وأهل اللغـة ، فأعجزهم فى كل مراحل التحدى ، والقرآن يحتوى على منهج حق .

وأول شىء فى منهج القرآن أنّه تكلّم عن العـقائد التى هى الأصلُ الأصـيل لكل دين ، فـقـبل أنْ أقول لك : قـال الله ، وأمَـر الله لابُدَّ أن تعرف أولاً مَنْ هو الله ، ومَن الرسول الذى بلّغ عن الله ، فالعقائد هى ينبوع السُّلوكيات .

إذن : تعرّض القرآن للإلهيات ، وأوضح أن الله تعالى إله واحد له صفات الكمال المطلق ، وتعرّض للملائكة وللنبوات والمعجزات والمعاد واليـوم الآخر ، كُلُّ هذا فى العـقـائد ؛ لأن الإسلام حـرصَ أولاً على تربيـة العقـيدة ، فكانت الدعـوة فى مكة تُركّز على هذا الجـانب دون غيره من جوانب الدين ليُربَّىَ فى المسلمين هذا الأصل الأصيل ، وهو الاستسلام لله ، وإلقاء الزمام إليه سبحانه وتعالى .

والإنسان لا يُلقى زمـام حركتـه إلا لمَنْ يثق به ، فلا بُدَّ إذنْ من معرفة الله تعالى ، ثم الإيمان به تعالى ، ثم التصديق للمبلّغ عن الله .

وفى القـرآن أيضاً أحكـامٌ وشرائع ثابتـة لا تتـغيـر ، ولن تُنسَخ بشـريعـة أخـرى ؛ لأنهـا الشـريعـة الخـاتمـة ، كـما قـال تعـالى : ﴿ الْيَـوْمَ أَكْـمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْـمَمْتُ عَلَيْكُـمْ نِعْـمَتِي وَرَضِـيتُ لَكُـمُ الإِسْلامَ دِينـاً .. (٣) ﴾ [المائدة]

إذن : نزل القرآن بما هو حَقٌّ من : إلهيات وملائكة ونبوّات ومعجزات وأحكام وشرائع ، كلها حَقٌّ ثابت لا شكَّ فيه ، فنزل الحق الثابت من الله بواسطة مَن اصطفاه من الملائكة وهو جبريل على مَن اصطفاه من الناس وهو محمد ، وفى طى ما نزل الحق الثابت الذى لا يتغير .

وصدق الحق سبحانه حين قال : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]

ونسوق هنا دليلاً عصرياً على أن كتاب الله جاء بالحق الثابت الذى لا يتغير على مَرِّ العصور ، ففى ألمانيا استحدث أحد رجال القانون قانوناً للتعسف فى استعمال الحق ، وظنّوا أنهم جاءوا بجديد ، واكتشفوا سلاحاً جديداً للقانون ليعاقب مَنْ له حَقّ ويتعسّف فى استعمال حقه .

ثم سافر إلى هناك محام من بنى سويف للدراسة ، فقرأ عن القانون الجديد الذى ادعَوْا السبق إليه ، فأخبرهم أن هذا القانون الذى تدَّعُونه لأنفسكم قانون إسلامى ثابت وموجود فى سُنّة رسول الله ، فعمدوا إلى كتب السيرة ، فوجدوا قصة الرجل الذى شكا إلى رسول الله ﷺ أن رجلاً له نخلة يمتلكها داخل بيته ، أو أنها تميل فى بيته ، فأخذها ذريعة وجعل منها مسمار جحا ، وأخذ يقتحم على صاحب البيت بيته بحجة أنه يباشر نخلته ، فماذا كان حكم الرسول فى هذه المسألة ؟

هذا الرجل له حَقٌّ فى النخلة ، فهى ملْكٌ له لكنه تعسَّف فى استعمال حقه ، وأتى بما لا يليق من المعاملة ، فالمفروض ألاَّ يذهب إلى نخلته إلا لحاجة ، مثل : تقليمها ، أو تلقيحها ، أو جمع ثمارها .

لقد أحضر رسول الله ﷺ الرجل وقال له : « إما أن تهبَ له هذه النخلة ، وإما أنْ تبيعها له ، وإما قطعناها » .

أليس ذلك من الحق الذى سبق به الإسلام ؟ وأليس دليلاً على استيعاب شرع الله لكل كبيرة وصغيرة فى حياة الناس ؟

أَضِفْ إلى ذلك ما قاله بعض العلماء من أهل الإشراقات فى معنى : (وَبِالْحَقِّ نَزَلَ) أى : وعلى الحق الذى هو رسول الله ﷺ نزل القرآن كما تقول : ذهبت إلى القاهرة ونزلت بفلان . أى : نزلت عنده أو عليه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

والبشارة تكون بالخير ، والنذارة تكون بالشر ، ويُشترط فى التبشير والإنذار أن تُعطَى للمبشَّر أو للمُنْذَر فرصة يراجع فيها نفسه ، ويُعدِّل من سلوكه ، وإلا فلا فائدة . ولا جدوى منهما ، فتُبشِّر بالجنة وتُنذِر بالنار فى مُتَّسَع من الوقت ليتمكن هذا من العمل للجنة ، ويتمكن هذا من الإقلاع عن سبيل النار .

ومثال ذلك : أنك تُبشِّر ولدك بالنجاح والمستقبل الباهر إن اجتهد ، وتحذره من الفشل إن أهمل ، وهذا بالطبع لا يكون ليلة الامتحان ، بل فى مُتَّسَع أمامه من الوقت لينفذ ما تريد .

والحق سبحانه وتعالى هنا يخبر رسوله ﷺ بحقيقة مهمته كرسول عليه البلاغ بالبشارة والنذارة ، فلا يُحمِّل نفسه فوق طاقتها ؛ لأنه ليس مُلْزَمًا بإيمان القوم ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

أى : مُـهلكهـا حُزْنـاً على عدم إيمـانهم ، وفى آيـة أخرى قـال :
﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣ ﴾ [الشعراء]

فكأنه سبحانه يُخفِّف العِبْءَ عن رسـوله ، ويدعوه ألاَّ يُتعِب نفسه فى دعوتـهم ، فما علـيه إلا البلاغ ، وعلى الله تـبارك وتعالى الـهداية للإيمان .

لكن حِرْص رسول الله على هداية قـومه نابع من قـضية تحـكمه وتستولى علـيـه لخَّصها فى قوله : « والله لا يـؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[1] .

فالنبى ﷺ كـامل الإيمان ، ويحب لقومه أن يكونوا كـذلك ، حتى أعداؤه الذين وقـفوا فى وجه دعـوته كان إلى آخر لـحظة فى الصراع يرجو لهم الإيمان والنجاة ؛ لذلك لما مُكِّن منهم لم يعاجلهم بالعقوبة ، بل قال : « بل أرجو أن يُخرِج الله من أصـلابهم من يعبد الله وحده ، لا يُشرك به شيئاً »[2] .

وفعلاً صدق الله ورسوله ، وجاء من ذريات هؤلاء مَنْ حملوا راية

---

(١) حديث متفق عليه . أخـرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومـسلم فى صحيحه (٤٥) كتـاب الإيمان ، عن أنس بن مـالك بلفظ : « والذى نفسى بيـده ، لا يؤمن عبـد حتى يحب لجاره ـ أو قال : لأخيه ـ ما يحب لنفسه » .

(٢) أخرج البـخارى فى صـحيـحه (٣٢٣١ ، ٧٣٨٩) من حـديث عائشة رضى الله عـنها أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجـبال لتأمره بما شـئت فيهم ، فناداني ملك الجبـال فسلم علىّ ثم قال : يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخـشبين ، فقال النبى ﷺ : « بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً » .

الدين ، وكانوا سيوفاً على أعدائه ، أمثال عكرمة بن أبى جهل ، وعمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ، وكثير من المسلمين كانوا حريصين على قَتْل هؤلاء حال كفرهم فى معارك الإسلام الأولى ، وهم لا يعلمون أن الله لم يُمكِّنهم من هؤلاء لحكمة ، إنهم سوف يكونون معك من سيوف الإسلام وقادته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

معنى (فَرَقْنَاهُ) أى : فصّلناه ، أو أنزلناه مُفرّقاً مُنجّماً حَسْب الأحداث (عَلَى مُكْثٍ) على تمهُّل وتُؤدَة وتأنٍّ .

وقد جاءت هذه الآية للردّ على الكفار الذين اقترحوا أن ينزل القرآن جملة واحدة ، كما قال تعالى حكاية عنهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان]

وأول ما نلحظه عليهم أن أسلوبهم فضحهم ، وأبان ما هُمْ فيه من تناقض ، ألم يسبق لهم أن اتهموا الرسول بافتراء القرآن ؟ وها هم الآن يُقرُّون بأنه نزل عليه ، أى : من جهة أعلى ، ولا دَخْلَ له فيه ، وقد سبق أن أوضحنا أنهم لا يتهمون القرآن ، بل يتهمون رسول الله الذى نزل عليه القرآن .

ثم يتولّى الحق سبحانه الردّ عليهم فى هذا الاقتراح ، ويُبيِّن أنه اقتراح باطل لا يتناسب وطبيعة القرآن ، فلا يصح أن ينزل جملة واحدة كما اقترحوا للأسباب الآتية :

١ - : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان]

(كَذَلِكَ) أى : أنزلناه كذلك على الأمر الذى تنتقدونه من أنه نزل مُفرّقاً مُنجّماً حسْب الأحداث ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ .. ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان] لأن رسول الله ﷺ سيتعرّض لكثير من تعنّتات الكفار ، وسيقف مواقف مُحرجة من تعذيب وتنكيل وسخرية واستهزاء ، وهو فى كل حالة من هذه يحتاج لتثبيت وتسلية .

وفى نزول الوحى عليه يَوْماً بعد يَوْم ، وحسْب الأحداث ما يُخفّف عنه ، وما يزيل عن كاهله ما يعانى من مصاعب ومَشَاقٌ الدعوة ، وفى استدامة الوحى ما يصله دائماً بمَنْ بعثه وأرسله ، أما لو نزل القرآن جملةً واحدة لكان التثبيت أيضاً مرة واحدة ، ولَفقد رسول الله جانب الصلة المباشرة بالوحى ، وهذا هو الجانب الذى يتعلق فى الآية برسول الله .

٢ - ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان] أى : نَزَّلْنَاه مُرتّلاً مُفرّقاً آيةً بعد آية ، والرتل : هو المجموعة من الشىء . كما نقول : رتل من السيارات ، وهكذا نزل القرآن مجموعة من الآيات بعد الأخرى ، وهذه الطريقة فى التنزيل تُيسِّر للصحابة حِفْظ القرآن وفَهْمه والعمل به ، فكانوا رضوان الله عليهم يحفظون القَدر من الآيات ويعملون بها ، وبذلك تيسَّر لهم حفظ القرآن والعمل به ، فكانت هذه المِيْزَة خاصة بالصحابة الذين حفظوا القرآن ، وما زلنا حتى الآن نُجزِّىء القرآن للحفظة ، ونجعله ألواحاً ، يحفظ اللوح تلو الآخر .

٣ - ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان]

وهذه للمخالفين لرسول الله ، وللمعاندين لمنهج الله الذين

سيعترضون عليه ، ويحاولون أن يستدركوا عليه أموراً ، وأن يتهموا رسول الله ، فلا بُدَّ من الردّ عليهم وإبطال حُجَجِهم فى وقتها المناسب ، ولا يتأتَّى ذلك إذا نزل القرآن جملة واحدة .

(وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ) أى : بشىء عجيب يستدركون به عليك (إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالحَقِّ) أى : ردّاً عليهم بالحق الثابت الذى لا جدالَ فيه .

وإليك أمثلة لِردِّ القرآن عليهم ردّاً حياً مباشراً .

فلما اتهموا رسول الله وقالوا : ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴿٤٧﴾﴾ [الإسراء] رَدَّ القرآن عليهم بقوله تعالى : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم] والمسحور لا يكون أبداً على خُلق عظيم .

ولما قالوا : ﴿مَا لِهَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ .. ﴿٧﴾﴾ [الفرقان] يردُّ القرآن عليهم بقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ .. ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان]

فليس محمد ﷺ بدعاً فى هذه المسألة ، فهو كغيره من الرسل الذين عُرِفت عنهم هذه الصفات ، وفى هذا ما يؤكد سلامة الأُسْوة فى محمد ﷺ ، وأنه بشر مثل الذين أرسلنا إليهم من قبله ، إنما لو كانت فى محمد خاصية ليست فى غيره ربّما اعترضوا عليها واحتجُّوا بها .

لذلك كان من أدب النبى ﷺ مع ربه ومع صحابته أنه قال : « إنما أنا بشر يرد علىَّ - أى بالوحى - فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويؤخذ منى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

فانظر إلى أىّ حدٍّ كان تواضعه ﷺ ؟

ولما اتهموا الرسول ﷺ ، فقالوا : ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ.. ﴿٨﴾﴾ [سبأ] فردّ عليهم الحق سبحانه بقوله : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود]

ثم يتنزّل معهم فى هذا التحدى ، ويترأف بهم : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ..﴿٢٣﴾﴾ [البقرة]

ثم يناقشهم فى هذه المسألة بهذا الأدب الرفيع والنموذج العالى للحوار : ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾[هود]

وفى آية أخرى يقول : ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سبأ]

فانظر إلى هذا الأدب : رسول الله حين يتحدّث عن نفسه يقول (أَجْرَمْنَا) وحين يتحدث عن أعدائه لا ينسب إليهم الإجرام ، بل يقول : (وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ) .

هذا كله من الحق الذى جاء به القرآن ليردّ عن رسول الله اتهامات القوم ، وبالله لو نزل القرآن جملةً واحدة ، أكان من الممكن الردُّ على هذه الاتهامات ومجادلة القوم فيما يُثيرونه من قضايا ؟

وإنْ كانت هذه الأمثلة خاصة برسول الله ﷺ وتبرئة ساحته فى مجال الدعوة إلى الله ، فهناك أيضاً ما يتعلق بالأحكام والتشريع ، فالقرآن نزل بالعقائد والأحكام والتشريعات ، ونزل ليكون دائماً ثابتاً

لا يتغير إلى يوم القيامة ، ولن يُنسَخ منه حرف واحد كما حدث فى الكتب السابقة عليه .

فإن نظرتَ إلى العقائد وجدتَ الكلام فيها قاطعاً لا هوادةَ فيه ، يأتى هكذا قَوْلاً واحداً ، فالله واحد أحد لا شريك له ، له صفات الكمال المطلق ، وكذلك الحديث عن الملائكة والبَعْث والحساب .

لكن تجد الأمر يختلف فى الحديث عن العادات التى ألفها الناس فى حركة الحياة ، فهذه أمور تحتاج إلى تلطُّف وتدرُّج ، ولا يناسبها القصْر والقَطْع . ألم تَرَ إلى المشرِّع سبحانه حينما أراد أنْ يُحرِّم الخمر ، كيف تدرّج فى تحريمها على عدة مراحل حتى يجتثَّ هذه العادة التى تحكّمتْ فى نفوس الناس وتملّكتهم ، أكان يمكن معالجة هذه المسألة بهذه الطريقة إذا نزل القرآن جملة واحدة ؟

انظر كيف لفتَ أنظارَ القوم بلُطْف إلى أن فى الخمر شيئاً ، فقال تعالى : ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا[1] وَرِزْقًا حَسَنًا .. (٦٧)﴾ [النحل]

ولما سمع بعض الصحابة هذه الآية قال : والله لكأن الله يُبيِّت للخمر شيئاً . لقد فهم بملكته العربية أن الله تعالى طالما وصف الرزق بأنه حسن ، وسكت عن السَّكَر فلم يَصِفْه بالحُسْن ، فإن وراء هذا الكلام أمراً فى الخمر ؛ لأنه يتلف نعمة الله ويُفسدها على أصحابها .

ثم يُحوِّل هذه المسألة إلى عظة وإرشاد ، فيقول : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا .. (٢١٩)﴾ [البقرة]

---

(١) السكر : كل ما يسكر أى الخمر ، أو نقيع التمر وعصير العنب الذى لم تمسه النار وهو غير مسكر . والسَّكَر أيضاً : الخل . [القاموس القويم ١/ ٣٢٠] .

وهكذا قرَّر لهم الحقيقة بعد أن سألوا هم عنها ، وترك لهم حرية الاختيار ، فالأمر ما زال عظة ونصيحة لا تشريعاً مُلْزماً ، إلا أنه مهَّد الطريق للقطع بتحريمها بعد ذلك .

ثم حدث من أحدهم أن صلَّى وهو مخمور لا يدرى ما يقول ، فلما سمعوه يقول : قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ، فغمزه مَنْ بجواره وعرف أنه مخمور ، ووصل خبره إلى رسول الله ﷺ فنزل قوله تعالى[1] : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النساء]

وبذلك أطال مدَّة الامتناع عن شُرْب الخمر ، فالصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة ، فإذاً لا بُدَّ من الامتناع عن الخمر قبل الصلاة بوقت كاف ، وهكذا عوَّدهم الامتناع ودرَّبهم على الصبر عن هذه الآفة التى تمكَّنتْ منهم . ثم يتحيَّن الحق سبحانه فرصة منهم ، حيث اجتمع القوم فى مجلس من مجالس الشراب ، ولما لعبتْ الخمر بالعقول تشاجروا حتى سالتْ دماؤهم ، وعندها ذهبوا بأنفسهم إلى رسول الله ﷺ يسألونه[2] :

---

(١) عن على بن أبى طالب قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدموا فلاناً فقرأ : قل يأيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون . فأنزل الله ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النساء] أورده ابن كثير فى تفسيره (١/ ٥٠٠) ، ثم قال : « هكذا رواه ابن أبى حاتم وكذا رواه الترمذى عن عبد بن حميد عن عبد الرحمن الدشتكى به ، وقال : حسن صحيح » .

(٢) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : اللهم بيِّن لنا فى الخمر بياناً شافياً ، فنزلت الآية التى فى البقرة ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ .. ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة] فدعى عمر فقرئت عليه ، فقال : اللهم بيِّن لنا من الخمر بياناً شافياً ، فنزلت الآية التى فى النساء ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النساء] ، فكان منادى رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة ينادى : لا يقربنَّ الصلاة سكران ، فدعى عمر فقرئت عليه ، فقال : اللهم بيِّن لنا فى الخمر بياناً شافياً ، فنزلت هذه الآية ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [المائدة] فدعى عمر فقرئت عليه ، فلما بلغ : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة] . قال عمر : انتهينا » . أورده الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص١١٨) .

يا رسول الله بيِّن لنا فى الخمر رأياً شافياً ، وهنا ينزل الوحى على رسول الله بالحكم القاطع :﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ .. ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة]

فكيف كانت معالجة هذه الآفة التى تمكَّنتْ من الناس لو نزل القرآن جملة واحدة ؟

إن الحق تبارك وتعالى بنزول القرآن مُفرّقاً مُنجّماً حَسْب الأحداث ، كأنه يُجرى مشاركة بين آيات التنزيل والمنفعلين بها الذين يُصِرّون على تنفيذ مطلوباتها ، حتى إنهم ليبادرون رسول الله ﷺ بالسؤال ، مع أنه ﷺ قد نهاهم أن يبدأوه بالسؤال ، كما قال تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ .. ﴿١٠١﴾﴾ [المائدة]

ولكنهم مع هذا تغمزهم المسألة فيبادرون بها رسول الله ، كما حكى القرآن :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ .. ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة]

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ .. ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة]

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ .. ﴿١٨٩﴾﴾ [البقرة]

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ .. ﴿١٠٥﴾﴾ [طه]

إذن : وراء نزول القرآن مُفرّقاً مُنجّماً حِكَم بالغة يجب تدبُّرها ، هذه الحِكَم ما كانت لتحدث لو نزل القرآن جملةً واحدةً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا .. (١٠٧) ﴾ [الإسراء] آمنوا : أمر ، ولا تؤمنوا : نَهْى . والأمر والنهى نوعان من الطلب ، والطلب أن تطلب من الأدنى أن يفعل ، والنهى أنْ تطلبَ من الأدنى ألاَّ يفعل ، فإنْ كان الطلب من مُساو لك فهو التماس ، وإنْ كان إلى أعلى منك فهو دعاء .

لذلك حينما نقول للطالب أعرب : (رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ) يقول : اغفر فعل أمر ، نقول له : أنت سطحىّ العبارة ؛ لأن الأمر هنا من الأدنى للأعلى ، من العبد لربه تبارك وتعالى ، فلا يقال : أمر ، إنما يقال : دعاء .

والطاعة أن تمتثل الأمر والنهى ، فهل نقول فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا .. (١٠٧) ﴾ [الإسراء] أنها للتخيير ، فإنْ آمنوا فقد أطاعوا ، وكذلك إنْ لم يؤمنوا فقد أطاعوا أيضاً ؟

نقول : الأمر والنهى هنا لا يُراد منه الطلب ، بل يراد به التهديد أو التسوية كما تقول لابنك حين تلاحظ عليه الإهمال : ذاكر أو لا تذاكر ، أنت حر ؛ لا شكَّ أنك لا تقصد النهى عن المذاكرة ، بل تقصد تهديده وحثّه على المذاكرة .

فقوله : ﴿قُلْ آمنوا به أَوْ لا تُؤْمنوا .. (١٠٧)﴾ [الإسراء] للتسوية ، كما قال : ﴿فَمَن شاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف]

فهذا ليس أمراً بحيث أن الذى يفعل الأمر أو النهى يكون طائعاً ، بل المراد هنا التهديد أو التسوية ، فسواء آمنوا أو كفروا ؛ لأن الحق سبحانه جعل فى ذلك عزاءً لرسوله ﷺ فى إيمان أهل الكتاب .

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ .. (١٠٧)﴾ [الإسراء] أى : اليهود والنصارى الذين ارتاضوا بالكتب السماوية ، واستمعوا للتوراة والإنجيل ، ونقلوها إلى غيرهم من المعاصرين للقرآن ، فهؤلاء شاهدون بأن الرسول حَقٌّ بما عندهم من بشارة به فى التوراة والإنجيل ؛ لذلك يتركون دينهم ويسارعون إلى الإسلام ؛ لأنهم يعلمون عِلْم اليقين أنه الدين الحق .

ومن هؤلاء عبد الله بن سلام[1] ، وكان من علماء اليهود ، وكان يعلم أوصاف رسول الله وزمن بَعْثته ؛ لذلك قال : لقد عرفته حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد[2] .

---

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى ، أبو يوسف ، صحابى ، أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة ، وكان اسمه « الحصين » فسماه رسول الله ﷺ عبد الله ، وشهد مع عمر فتح بيت المقدس ، أقام بالمدينة إلى أن توفى عام ٤٣ هـ . (الأعلام للزركلى ٩٠/٤) .

(٢) يقول تعالى : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)﴾ [البقرة] . قال القرطبى : ويروى عن عمر بن الخطاب أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر . نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدرى ما كان من أمه . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١٩٤/١) .

ولما اختمر الإسلام في نفسه ذهب إلى رسول الله وصارحه بما نوى من اعتناق الإسلام ، وقال : يا رسول الله إن اليهود قوم بُهْتٌ[1] فإن أعلنتُ إسلامي الآن قالوا فيَّ ما ليس فيَّ ، فاسألهم عني وأنا ما زلت على دينهم ، وانظر ما يقولون ، فسألهم رسول الله : ما تقولون في ابن سلام ؟ فقالوا : حَبْرنا وابن حَبْرنا ، ووصفوه بخير الصفات ، وأطيب الخصال ، فقال عبد الله : يا رسول الله ، أما وقد قالوا فيَّ ما قالوا فأشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فإذا بهم يذمونه ويتهمونه بأخسِّ الخصال ، فقال : يا رسول الله ألم أقُلْ لك إنهم قوم بُهْتٌ[2] .

إذن : ففي إيمان عبد الله بن سلام وغيره من اليهود والنصارى الذين عرفوا رسول الله بأوصافه في كتبهم وعرفوا موعد بعثته وأنه حق ، في إيمان هؤلاء عَزَاءٌ لرسول الله حين كفر به قومه وكذَّبوه ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الرعد]

ونحن مُكْتفون بشهادة هؤلاء ؛ لأنهم قوم صادقون مع أنفسهم ، صادقون مع أنبيائهم ومع كتبهم التي تلقوْهَا ، فحينما بشَّرت بمحمد ووصفته لم ينكروا هذه الصفات ولم يُحرِّفوها ، بل كانوا يسارعون إلى المدينة انتظاراً لمبعث النبي الجديد الذي سيظهر فيها ، لقد كانوا يقولون لكفار مكة : لقد أظلَّ زمان نبي جديد نتبعه قبلكم ، ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم .

---

(١) البهتان : الكذب والافتراء . [لسان العرب ـ مادة : بهت] .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٩٣٨) ، وأحمد في مسنده (٣/١٠٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة]

إلا أن الله أبقى للحق خلية ، وجعل له خميرة استجابت لرسول الله ، وتفاعلت مع الدين الجديد .

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ .. ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الإسراء] أى : القرآن ﴿ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الإسراء]

كلمة (يَخِرُّونَ) توحى بأنهم يسارعون إلى السجود ، وكأنها عملية انفعالية غير إرادية ليس لهم فيها تصرُّف ، فبمجرد سماع القرآن يرتمون على الأرض ساجدين ؛ لأنهم تفاعلوا معه ، واختمر الإيمان فى نفوسهم . ليس ذلك وفقط ، بل ويخرون (لِلأَذْقَانِ) جمع ذَقَن ، وهى أسفل الفكِّ السفلى ، ومعلوم أن السجود يكون على الجبهة ، أما هؤلاء فيسجدون بالوجه كله ، وهذا دليل على الخضوع والاستسلام لله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

أى : يقولون حال سجودهم : سبحان ربنا الذى وَفَّى بوعده فى التوراة والإنجيل ، وبعث الرسول الخاتم ومعه القرآن ، سبحانه حقق لنا وَعْده وأدركناه وآمنا به ، وكان هذه نعمة يحمدون الله عليها .

ويقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾

لقد خَرُّوا ساجدين لله تعالى قبل ذلك لأنهم أدركوا القرآن الذى

نزل على محمد ، وتحقَّق لهم وعد الله فعاصروه وآمنوا به . أما هذه المرة فيخرون ساجدين لما سمعوا القرآن تفصيلاً وانفعلوا به ، فيكون له انفعال آخر ، لذلك يزيد هنا الخشوع والخضوع ، فيقول : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ .. (١٠٩) ﴾ [الإسراء] فكلما قرأوا آية ازدادوا بها خشوعاً وخضوعاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١١٠) ﴾

(ادْعُوا) اذكروا ، أو نادوا ، أو اطلبوا (الله) عَلَم على واجب الوجود سبحانه ، ومعنى : عَلَم على واجب الوجود أنها إذا أُطلقَتْ انصرفتْ للذات الواجبة الوجود وهو الحق سبحانه ، كما نُسمِّي شخصاً ، فإذا أُطلِق الاسم ينصرف إلى المسمَّى .

والأسماء عندنا أنواع كثيرة : إما اسم ، أو كُنْية ، أو لَقَب .

الاسم : وهو أغلب الأعلام ، ويُطلَق على المولود بعد ولادته ويُعرَف المولود به .

والكُنْيــة : وتُطلَق على الإنسان ، وتُسبَق بأب أو أم أو ابن أو بنت ، كما نقول : أبو بكر ، وأم المؤمنين .

واللقب : وصف يُشْعِر بالمدح أو بالذم ، كما نقول : الصِّديق ، الشاعر ، الفاروق .

فإذا كان الاسم معه شريك غيره لا بُدَّ لتمييزه من وَصْفه وَصْفاً يُعْرف به ، كما يحدث أن يألف شخص أن يسمي أولاده جميعاً : محمد. فالتسمية في هذه الحالة لا تُشخِّص ولا تُعيِّن المسمَّى ؛ لذلك لا بُدَّ أن نصف كل واحد منهم بصفة فنقول : محمد الكبير . محمد الصغير . محمد المهندس . فإذا أُطلق الاسم بصفته ينصرف إلى شخص معين .

وإذا كُنَّا نحن نُسمِّي أولادنا ؛ فإن الحق سبحانه سَمَّى نفسه بأسمائه التي قال عنها : الأسماء الحُسْنى ، وكلمة (حُسْنى) أفعل تفضيل للمؤنث ، مثل : كبرى . والمذكر منها أحسن . لكن لماذا وَصَف أسماءه تعالى بالحسنى ؟

الاسم يُبيِّن المسمَّى ، لكن الأسماء عند البشر قد لا تنطبق على المسمَّى الذي أُطلقت عليه ، فقد نُسمِّي شخصاً « سعيد » وهو شقي ، أو نسمي شخصاً « ذكي » وهو غبي . وهذا ليس بحَسَنٍ في الأسماء ، الحسَن في الاسم أنْ يطابق الاسم المسمَّى ، ويتوفَّرَ في الشخص الصفة التي أُطلِقت عليه ، فيكون الشخص الذي سميناه « سعيد » سعيداً فعلاً .

وهكذا يكون الاسم حسناً ، لكنه لا يأخذ الحُسْن الأعلى ؛ لأن الحُسن الأعلى لأسماء الله التي سَمَّى بها نفسه ، فله الكمال المطلق .

فهذه - إذن - لا تتأتَّى في تسمية البشر ، فكثيراً ما تجد « عادل » وهو ظالم ، و « شريف » وليس بشريف ؛ لذلك قلنا :

وَأَقْبَحُ الظُّلْم بَعْد الشِّرْكِ منزلةً   أنْ يظلم اسمٌ مُسمَّى ضِدَّه جُعِلاَ

فَشَارِع كعمَادِ الدين تَسْمِيةً   لكِنَّه لعِنَادِ الدِّينِ قَدْ جُعِلاَ

فالاسم قد يظلم المسمَّى كما حدث أنْ سَمَّوْا الشارع (عماد الدين) ،

وهذا الشارع كان فى الماضى بُؤْرَة للفسْق والفجور ، وما أبعده سابقاً عن هذه التسمية .

فلفظ الجلالة (الله) عَلَم على واجب الوجود ، وبعد ذلك جاءت صفات غلبت عليه ، بحيث إذا أُطلِقَتْ لا تنصرف إلا إليه . فإذا قُلْنا : العزيز على إطلاقه فإنها لا تنصرف إلا لله تعالى ، لكن يمكن أن نقول : فلان العزيز فى قومه ، فلان الرحيم بمَنْ معه ، فلان النافع لمَنْ يتصل به ، إنما لو قُلْت : النافع على إطلاقه فهو الحق سبحانه وتعالى .

لذلك ؛ حلّتْ الصفات محلّ اسم الذات (الله) ؛ لأنها إذا أُطلِقَتْ لا تنصرف إلا لله تعالى ، فأسماءُ الله الحُسْنى هى فى الأصل صفات له سبحانه .

ولو تأملنا هذه الأسماء لوجدناها على قسمين : أسماء ذات ، وأسماء صفات فعلية ، اسم الذات لا يتصف الله بمقابله ، فالعزيز مثلاً اسم ذات فلا نقول فى مقابله الذليل ، والحيّ اسم ذات فلا نقول : الميت . أما اسم الصفة الفعلية فيكون له مقابل ، فالمعزّ صفة فعل يعنى يُعِزّ غيره ، ومقابلها المذلّ ، والضّارّ مقابلها النافع ، والمحيى مقابلها المميت وهكذا .. إنْ وجدتَ للاسم مقابلاً فاعلم أنه اسمٌ لصفة الفعل من الله تعالى ، وإذا لم يكن له مقابل فهو اسم ذات .

لكن تقف مثلاً عند السَّتَّار وهى صفة فعل لأنه يستر غيره ، لكن ليس لها مقابل فلا نقول الفضَّاح ، لماذا ؟ لأنه تبارك وتعالى يريد أنْ يتخلّق خَلْقه بهذه الصفة ، وأنْ يُربِّب صفة الستر عند الناس للناس ، فلو علم الناس عن أحد أمراً فاضحاً لزهدوا فى كل ما يأتى من عنده ولو كان حسنة ، وبذلك يُحرَم المجتمع من طاقات كثيرة فى الخير .

لكن حين تستر على صاحب العيب عيبه ، فإنك تعطى للمجتمع فرصة لينتفع بما لديه من صفات الخير ؛ لذلك الله تعالى يُعصَى ويحب أن يُستَر على عبده العاصى ؛ لكى يستمر دولاب الحياة ؛ لأنه لا يوجد أحد له كمال إلا النبى ﷺ ، وصدق القائل :

مَنْ ذَا الذى مَا سَاءَ قَطُّ   وَمَنْ لَهُ الحُسْنى فَقَطْ

إذن : فمن الحكمة أن يأمر الله تعالى بستر غَيْب خَلْقه عن خَلْقه حتى تستمر حركة الحياة ؛ لأن الإنسان ابنُ أغيار ، وقلبه سريعاً ما يتقلبْ ، ولربما لو عرفتُ عنك شيئاً مستوراً لتغيَّرْتُ لك وأنت كذلك ، ولربما تقطعت بيننا حبال المودة ، إنما بالستر ينتفع كُلٌّ مِنّا بالآخر .

ومن هنا قالوا : لو تكاشفتم ما تدافنتم ، أى : لو تكشفتْ الأسرار ، وعرف كُلٌّ منكم عَيْب أخيه ما دفنتم مَنْ يموت منكم ، وهذا منتهى ما يمكن تصوُّره من التقاطع بين الناس .

فقوله تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ .. ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء] فاختار هذا الاسم بالذات (الله) العَلَم على واجب الوجود ، وهو اسم ذات لا يدلُّ على صفة معينة ، لكنه يحمل فى طياته كل صفات الكمال فيه ، فإنْ كانت للأسماء الأخرى مجالات ، فالقادر فى القدرة ، والحكيم فى الحكمة ، والقابض فى القبض ، والعزيز فى العزّة . فإن لكل اسم مجالاً وسيالاً ، فإن (الله) هو الاسم الجامع لكل الصفات .

لذلك فى الحديث النبوى الشريف : « كُلُّ شىء لا يُبدأ باسم الله فهو أبتر »[1] .

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٥٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « كل كلام أو أمر ذى بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر - أو قال : أقطع » .

لماذا ؟ لأنك حين تُقدم على أىِّ فعل تحتاج أولاً إلى حكمة لتعرف من خلالها لماذا تفعل ، وتحتاج إلى قدرة تُعينك على إنجازه ، وتحتاج إلى علم بمصير هذا الفعل وعاقبته ؛ إذن : تحتاج إلى صفات كثيرة ، فحين تُقبل على العمل لا تَقُل : يا حكيمُ يا قادرُ يا عليمُ ، إنما الحق سبحانه يُريحك ، ويكفى أن تقولَ فى الإقدام على الفعل : باسم الله . لأنك ذكرتَ الاسم الجامع لكلُ صفات الكمال .

﴿أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَـٰنَ .. ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء] واختار الرحمن دون الجبار أو القهار ؛ لأن الرحمة صفة التحنين للخلق ، فالحق سبحانه وتعالى يُظهر هذه الصفة لعباده حتى فى أسماء الجبار والقهار ؛ لأنها من خَدَم الرحمة ومن أسبابها ؛ لأن العبد إذا عرف لله : صفة الجبروت ، وصفة القهر ، وصفة الانتقام انتهى عن أسباب الوقوع تحت طائلة هذه الصفات ، فكأنه يرحم عباده حتى بصفات القهر والانتقام .

ومن هذا قول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَـٰأُولِى الأَلْبَابِ .. ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة] لأنه إذا علم القاتل أنه سيُقتل انتهى عن القتل . وفى الأثر : « القتل أنْفَى للقتل » .

إذن : فتشريع القصاص وإقامة الحدود والعقوبات لا لتعذيب الخلق ، وإنما رحمة بهم حتى يقفوا بعيداً عن ارتكاب ما يُوجب القصاص أو الحد أو العقوبة ، حتى الذى يقهره الله مرحوم أيضاً ؛ لأنه ما دام قال : أنا قهار . فاحذرنى ، فهو بذلك يرحمه لأنه يُحذِّره من أسباب الوقوع فيما يستوجب غضبه وانتقامه .

وكذلك اختار اسم (الرحمن) لأن مجال التكليف كله الرحمة ، وما نزل المنهج من الله إلا لينظم حياة الناس ويُحقِّق لهم السعادة فى

حركة الحياة ، فيتكامل الخَلْق فيما بينهم ، ويتعاونون ، ويتساندون ولا يتعاندون ، ويكونون جميعاً على قلب رجل واحد ، هذه غاية المنهج الإلهيّ فى دنيا الناس أنْ يعيشَ المجتمع المسلم آمناً سالماً .

فالرحمانية الإلهية هى الغالبة فى كل التشريع ، وهى السِّمة العامة ، ألاَ ترى قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَـٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)﴾ [الرحمن]

فالقرآن الذى نزل لِيُنظِّم حياة الناس ويحكمها ، ويصلح حركة الحياة ، ويضع السلام بينك وبين الله ، وبينك وبين نفسك ، وبينك وبين الناس ، هذا القرآن مظهر من مظاهر هذه الرحمانية الإلهية .

وقد اعترض بعض المستشرقين على قوله تعالى فى سورة الرحمن : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾ [الرحمن] والآلاء هى النعم ، وأنها جاءت تذييلاً لقوله تعالى : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥)﴾ [الرحمن] فالآية تتحدث عن النار والشواظ ، فكيف تُختم هذه الخاتمة التى تدلُّ على النعمة ؟

ولو تدبَّر القوم ما اعترضوا ؛ لأن فى النار والتحذير منها والتخويف بها نعمةً ، كأن القرآن يقول لك : إياك أنْ تفعل ما يُوجِب النار والشُّواظ فتقلع وترتدع من قريب ، أليست هذه من نعم الله على عباده ؟ أليست رحمة بهم ؟ وماذا كنتم ستقولون إنْ لم يُقدِّم لكم الحق سبحانه تحذيراً وإنذاراً ، ثم فاجأكم بالعذاب ؟

ونقف على لطيفة أخرى لاستخدام اسم الله (الرحمن) فى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَـٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (٥٩)﴾ [الفرقان]

أى : بعد أن خلق الخَلْق كله بسمائه وأرضه وما فيهما استوى على العرش ؛ لأن الاستواء على العرش يعنى أن كل شىء تَمَّ له سبحانه خَلْقاً وإيجاداً ، وانتهى إلى الجلوس على العرش ، وهذا تمثيل بالملوك الذين لا يجلسون على العرش إلا بعد أنْ يستتبَّ لهم الأمر ، فجلوس الملك على العرش يعنى أنه الأوحد الذى لا يعارضه أحد .

فالحق سبحانه يُنبِّهنا بقوله : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ .. ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان] واختار صفة الرحمة ليُوحى لنا أن قعوده على العرش لا يعنى القَهْر والجبروت ، إنما قعد على عرشه رحمةً بكم ، قعد على العرش ليُنظِّم حياتكم ، ويرحم بعضكم ببعض ، فتسعدوا بالحياة . فالاستواء هنا لا استواءَ قهر وغلبة ، بل استواء رحمة لمصلحتكم أنتم .

وفى آية أخرى قال : ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه] وقد ورد استواؤه سبحانه على العرش فى سبعة مواضع فى كتاب الله ، نظمها الناظم فى قوله :

وَذِكْرُ استْواء الله فى كَلِمَاته ... علَى العَرْش فى سَبْع مَواضعَ فَاعْدُد
فَفِى سُورَةَ الأعرافِ ثمة يُونُسٍ ... وفى الرعْدِ مع طَه فَلِلْعَدِّ أكدَ
وَفِى سُورة الفُرْقانِ ثمة سَجْدَة ... كَذَا فِى الحديدِ افْهَمُوا فَهْم مؤيِّدَ

وكل صفة من صفات جلاله سبحانه إنما هى فى خدمة رحمانيته ، لأنه يُخَوِّف عباده بصفات الجلال حتى لا يقعوا فى المخالفة ، فيأخذوا نعمة الله فى الدنيا ، ويسعدوا بها ، ويأخذوا نعيم الآخرة فيسعدوا بها ، فهى - إذن - الرحمانية المستولية والسمة العامة لمنهج الله فى الدنيا والآخرة .

وفى الحديث « فى آخر ليلة من رمضان يتجلى الجبار بالمغفرة... »[1] ولم يقُلْ : تجلى الغفار بالمغفرة ، فلماذا آثر صفة الجبار فى مجال المغفرة ؟

قالوا لأن المغفرة تُوحِي بوجود ذنب ، والذنب يقتضى العقوبة ، وهذه من اختصاص صفة الجبار ، فهل تغلَّبتْ صفة الغفار على صفة الجبار ، وأخذت اختصاصها ؟ لا بل تشفع صفة الغفار عند صفة الجبار : الموقف لك أيتها الصفة ، لكن نستسمحك فى أن نشفع فى هؤلاء ، فكأن صفات الجمال تشفع عند صفات الجلال .

لذلك ، فالذين يُفسِّرون الحديث يقولون : شفع المؤمنون ، وشفع الأنبياء ، وشفعت الملائكة ، وبقيت شفاعة أرحم الراحمين[2] فعند مَنْ سيشفع أرحم الراحمين ؟ قالوا : تشفع ذاته عند ذاته ، وهكذا

(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت أمتى فى شهر رمضان خمساً لم يعطهن نبى قبلى ، أما واحدة : فإنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان ينظر الله عز وجل إليهم ، ومن نظر الله إليه لم يعذبه أبداً .. وأما الخامسة فإنه إذا كان آخر ليلة غفر الله لهم جميعاً . فقال رجل من القوم : أهى ليلة القدر ؟ فقال : لا ألم تر إلى العمال يعملون فإذا فرغوا من أعمالهم وفوا أجورهم » قال المنذرى فى الترغيب والترهيب (٢/٦٥) : « رواه البيهقى وإسناده مقارب » .

(٢) عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى حديث طويل عن رسول الله ﷺ قال : « عُرِض علىَّ ما هو كائن من أمر الدنيا وأمر الآخرة ، فجمع الأولون والآخرون بصعيد واحد .. حتى قال : ثم يقال : ادعوا الصديقين فيشفعون . ثم يقال : ادعوا الأنبياء فيجىء النبى ومعه العصابة ، والنبى ومعه الخمسة والستة ، والنبى ليس معه أحد . ثم يقال : ادعوا الشهداء فيشفعون لمن أرادوا ، فإذا فعلت الشهداء ذلك يقول الله : أنا أرحم الراحمين ، أدخلوا جنتى من كان لا يشرك بى شيئاً فيدخلون الجنة » الحديث أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤) وأورده الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٧٤) والسيوطى فى « البدور السافرة فى أمور الآخرة » (ص١١٩) .

تشفع صفة الجمال (الغفار) عند صفة الجلال (الجبار) تبارك وتعالى .

ثم يقول تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ .. (١١٠)﴾ [الإسراء] فأىُّ اسم تدعو به لأن أسماءه كلها حُسْنى ، لكن ليكُنْ عندك ذكاء فى الدعاء ، فتدعو بما يناسب حاجتك ، فإنْ أردتَ علْماً فقُلْ : يا عالم علِّمنى ، وإنْ كنتَ ضعيفاً فقُلْ : يا قوى قَوِّنى ، وإنْ أردتَ العزة فَقُلْ : يا عزيز أعزَّنى وهكذا .. فإن أردتَ الاختصار فقُلْ : يا الله . تكفيك كل شىء .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ[1] بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١١٠)﴾ [الإسراء] الصلاة يراد بها كل أعمال الصلاة (وَلاَ تَجهَرْ) فالجهر منهىٌّ عنه ، وكذلك (وَلاَ تُخَافتْ) أى : لا تُسرَّها بحيث لا يَسْمعك من خلفك ، وهذا منهىٌّ عنه أيضاً . فكلاَ الطرفين مذموم ، وخَيْر الأمور الوسط .

ونُوضِّح هنا : إذا كان الجهر بالصلاة منهياً عنه فارتفاع الصوت عالياً من باب أوْلَى ، فلا يليق أبداً رَفْع الصوت بالصلاة ، ثم استعمال الميكروفونات أيضاً ، وما تُسبِّبه من إزعاج للناس .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)﴾ [الأعراف]

فأنت حين ترفع صوتك بالقرآن ، وخاصة فى الميكروفون تلزم الناس بالإنصات ، وتُوقعهم فى الإثم والحرج ، أو تعطل مصالحهم ،

---

(١) خافت الرجل بصوته : لم يرفعه . وخافت بقراءته أو بصلاته : لم يرفع صوته بها .

ولعل غيرك فى هذا الوقت يريد أن يقرأ هو الآخر ، أو يستغفر ، أو يُسبِّح أو يصلى ، فكيف تجعل الأمر المندوب عندك حاكماً على غيرك ؟ هذا لا يجوز ، بل اترك الناس وشئونهم فكل منهم حُرٌّ فيما يتنفّل به ، ولا تكُنْ من الذين قال الله فى حقهم :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾ [الكهف]

كالذى يُشعِل الميكروفون قبل صلاة الفجر ، ويأخذ فى إنشاد كلام ما نزل به الشرع ، يزعج به الناس ، ويُقلق به المريض ، ولا يراعى للناس حُرْمة . فمتى يفيق المسلمون ؟ ومتى يتنبهون إلى هذه البدع التى تُشوِّش على الناس وتُفسد عليهم عبادتهم ؟

أما إنْ كان رَفْع الصوت بالقرآن لغرض دنيوى ومكْسَب شخص ، وأن نجعل الأمر مَعْرضاً للأصوات ، ومضْماراً للسباق ، إنْ كان الأمر استغلالاً للدين لحساب الدنيا والعياذ بالله ، فقد دخل صاحبه فى شريحة أخرى من الإثم ، عافانا الله وإياكم .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١١٠) ﴾ [الإسراء]

أى : بين الجهر والإسرار ، واسلك سبيل الوسطية التى جاء بها الشرع ، وتأسَّ برسول الله ﷺ حينما كان يتفقد الصحابة ليلاً ، فوجد أبا بكر - رضى الله عنه - يقرأ ، ولا يكاد يسمع صوته ، فلما سأله . قال : يا رسول الله ، أناجى ربى وهو عالم بى ، فلما ذهب إلى عمر - رضى الله عنه - وجده يقرأ بصوت عالٍ ، فلما سأله قال : يا رسول الله أزجر به الشيطان . عندها أمر ﷺ أبا بكر أنْ يرفع

صوته قليلاً ، وأمر عمر أن يخفض صوته قليلاً[1] .

وهذا الاعتدال وهذه الوسطية أُمِرْنا بها حتى فى الدعاء ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ (٢٠٥) ﴾ [الأعراف]

فكلمة : ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ .. (١١٠) ﴾ [الإسراء] البينية هذه تكاد تشيع فى كل أحكام الدين ؛ لأن القرآن جاء لأمة وَسَط بالأمور الوسط فى كل شئون الحياة ، ففى قمة المسائل وهى الأمور العَقَدية مثلاً يقف الإسلام موقفَ الوسطية بين مَنْ يُنكرون وجود الإله ومَنْ يقول بآلهة متعددة ، فينفى هذه وهذه ويقول بوجود إله واحد أحد لا شريكَ له .

وفى الإنفاق يختار الوسط ، فيقول : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان]

وبذلك ضمن لأهله نظاماً اقتصادياً ناجحاً يُثرى حياة الجماعة ، ويَرْقَى بحياة الفرد ، وقد لخّص هذا المنهجَ الاقتصادي فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) ﴾ [الإسراء]

فالممسك المقتّر الذى يقبض يده عن الإنفاق يتسبّب فى رُكود البضائع وتوقف حركة الحياة ، وهذا خطر على المجتمع ، وفى التبذير خطر على الفرد حيث ينفق كل ما معه ، ولا يُبقى على شيء

---

(١) قال محمد بن سيرين : نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته ، وأن عمر كان يرفع صوته ، فقيل لأبى بكر : لم تصنع هذا ؟ قال : أناجى ربى عز وجل وقد علم حاجتى ، فقيل : أحسنت . وقيل لعمر : لم تصنع هذا ؟ قال : أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان . قيل : أحسنت . فلما نزلت ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١١٠) ﴾ [الإسراء] قيل لأبى بكر : ارفع شيئاً . وقيل لعمر : اخفض شيئاً . (ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣/٦٩) .